

هندسة المسافات الاجتماعية في الجيوب القروية داخل المدن

د. ميمونة مناصرية - جامعة بسكرة- الجزائر

Abstract :

Place is the space occupied by individuals and groups, and according to the diversity of the occupied places, the scale of standards and social values of each place is formed, and where the vocabulary and the proportions of holiness and reverence for the various meanings and symbols vary.

The village enclaves within the cities constitute a distinct area that differs from the city, the countryside and the village as well in terms of its urban architecture and rural behaviour. This contrast is so evident through social phenomena, daily actions, individual behaviours and various social relations.

The distance between individuals is often recognized as an accepted matter within social standards agreed on. But the fact of recognizing the idea of distance between individuals as a matter of study requires a lot of sensory and intuitive perception. It is the gesture, inspiration, greeting, and the forms of convergence of faces which constitute a form of communication between individuals, while the distance is drawn during this communication at the level of perception and intuition with some disparity depending on the social situation affected mainly by different religious values, customs and traditions of people. This article deals with the forms of distance between individuals in rural enclaves within cities.

الملخص :

المكان هو الفراغ المشغول من قبل الأفراد والجماعات، وعلى قدر تنوع الأمكنة المشغولة يتشكل سلم المعايير والقيم الاجتماعية - لكل مكان- وتتنوع مفرداته، وتتفاوت فيه نسب القداسة والتبجيل لمختلف المعاني والرموز.

وتشكل الجيوب القروية داخل المدن مجالا متميزا يختلف عن المدينة وعن الريف وعن القرية أيضا، حيث يشكله معمار مديني وتسوده سلوكات قروية مما يرسم للتناقض لوحات متعددة، تبدو واضحة من خلال الظواهر الاجتماعية والأفعال اليومية والسلوكات الفردية وكذا مختلف العلاقات الاجتماعية .

وكثيرا ما تظهر المسافة بين الأفراد أمرا مسلما به في ظل معايير اجتماعية متفق عليها، لكن الاعتراف بوجود فكرة المسافة بين الأفراد، كأمر قابل للدراسة يحتاج إلى كثير من الإدراك الحسي والحدسي على السواء.... إذ يشكل الإيماء والإيحاء والتحية والمصافحة وكل أشكال التقاء الوجوه.... شكلا من أشكال التواصل بين الأفراد، فيما يتم رسم المسافة خلال هذا التواصل على المستوى الإدراكي والحدسي بشيء من التفاوت حسب الموقف الاجتماعي المتأثر أساسا بمختلف القيم الدينية والعادات والتقاليد وأعراف الناس. وتعرض هذه المقالة إلى أشكال المسافة بين الأفراد في الجيوب القروية داخل المدن.

تمهيد

لا شك أن الحديث عن المسافة بين الأفراد هو حديث يتطلب إدراكا بالغ الدقة، لا لأن إدراك المسافة أمر عصي على الفهم، وإنما لكونه متشعب الأبعاد ذات الطبيعة المتمايزة، فالمسافة وإن بدت بعدا هندسيا فهي تنطوي على حزمة من الإدراكات لما تخبئه النفس من مشاعر وأحاسيس، وتطلع وشغف، وكره ونفور، ومودة ودهشة... وهي في الآن ذاته تعبر عن معادلة رياضية متغيراتها اللباس وتقاسيم الوجه وأساليب التحية وشكل الضحك واتجاه النظرة... ولعل هندسة المسافات ذات صلة وثيقة بفكر الفضاء، فنحن كبشر نستطيع تخيل الفضاء خاليا، لكننا أبدا لا نستطيع تصور شيء بدون فضاء، والنقطة الفضائية هي مكان خاو يعوض بمضمون، أي أنه من غير الضروري أن تكون بقعة في مجال النظر حمراء، ولكن يجب أن يكون لها لون، كما يجب أن يكون للصوت ارتفاع وللشيء الملموس صلابة¹ وللمسافة بين البشر قياس جبري وهكذا....، كما أننا في الفضاء نستطيع أن نتصور جيدا حالة أشياء تتعارض مع قوانين الفيزياء، إلا أننا لا نستطيع تخيل حالة من الأشياء تتعارض مع الهندسة²، ورغم صعوبة إدراك هذا المجال من الدراسة، إلا أن الأثروبولوجيا كتخصص يحتفي بشكل لافت بمثل هذه المواضيع، لا لأنها من صنع الانسان فحسب، بل لأن المجتمعات البشرية تتمايز بشأنها أيما تمايز، وتفصح عن تنوع لا متناه من أشكال التواصل عبر تقاسيم الوجوه وحركات الأجسام ورموز اللغة وألوان الملابس و....، وتستند هذه الورقة البحثية إلى دراسة سابقة بعنوان: "التحول الديمغرافي وآثاره على التشوه العمراني - دراسة تطبيقية بحى العالية الشمالية"³، حيث تم رصد ملامح الحياة اليومية في حارات حى العالية الشمالية بمدينة بسكرة، والتي تشكل جيوبا قروية، عبر تقنية الملاحظة بالمعايشة، وهو ما سهل الوقوف على العديد من الحقائق التي يتميز بها المجال العمراني.

أولا . الجيوب القروية

الجيوب القروية هي التجمعات العمرانية الثانوية التي نشأت بشكل عشوائي على أطراف المدن وضواحيها في غياب القانون بشكل شريطي أو خطي أو اندماج حضري، وهي تشكل مناطق عبور قيمي، ففيها يتراوح السلوك بين المدينة والريف، وهي محل تشوه تنظيمي على المستوى العمراني والخدماتي وحتى القيمي المعياري في كثير من الأحيان من خلال اهتزاز قواعد الضبط الاجتماعي، وفيما يتحسن منظر الوحدات السكنية نتيجة عناية أصحابها بمرور الزمن، إلا أن حال الطرق والشوارع يظل بعيد المنال، فيما تبقى ثقافة الجيب القروي عصية على التغيير إلا إذا تغيرت الأجيال.

وتشكل بعض الحارات -الحارة القديمة، حارة طابق الكلب- في حي العالية الشمالية جيوبا قروية تشكلت نتيجة موجة من الحركة والنزوح والوفود من خارج الولاية ومن بلدياتها، ومن أحياء المدينة، لفئات في معظمها محدودة الدخل. وفي غياب خطة عمرانية تأخذ بيد المشروع العمراني، شهد الحي تحولا ديمغرافيا وتكتلا ضمن مجال ضيق نظرا لما امتاز به من إيجابيات، فنشأ بذلك التشوه العمراني بسبب التزايد المستمر لعدد أفراد الأسرة والتعديل المستمر في مخطط المسكن تبعا لهؤلاء الأفراد، وفي غياب خطة ينتجها المجال في تطوره يمتد السكان في جهة دون أخرى فيأتي التجمع العمراني في شكل فوضوي ويجمع خلال ذلك الحي بين نمطين من أنماط الحياة الاجتماعية الأولى الناتجة عن البنية الاجتماعية والمتمثلة خصوصا في البناء القروي، حيث يتشكل المجتمع من جماعات قراية ذات اصل اثني واحد، مثل أولاد دراج، والسوامع... وينتمون إلى قبائل بني هلال، النمامشة وأولاد تيفورة والغواسير وأولاد عبد الرحمان وأولاد عبدي وينتمون إلى الشاوية، وهي بمثابة تكتلات انقسم خلالها الجوار إلى وحدات جوار ثانوية أنتجت الحارة فيما بعد .

أما الخاصية الحضرية فتتجلى في الناحية الديمغرافية والكثافة السكانية العالية وكذا تجاوز بنايات، وموقع الحي ضمن تجمع حضري يستفيد من كل الخدمات الحضرية كالجامعة والمركز البيداغوجي للمعاقين، وهكذا فقد بدأ التجمع العمراني بالخصائص الريفية، وهو ينتهي بخصائص حضرية مريفة، وهذه الصفة فهو بمثابة "المحول" الذي يتم من خلاله العبور

بين وضعيتين اجتماعيتين تختلفان عن بعضهما، فهو يضمن للعائلات النازحة الاندماج التدريجي مع ظروف جديدة تتناسب مع الوضع الجديد في شتى المجالات مثل الاستقلالية الاقتصادية والحرية وتوفير فرص الحراك الاجتماعي والانخراط في مؤسسات حضرية عديدة والاستفادة من خدماتها مباشرة.

ومع ذلك فإنه تحت تأثير صعوبات الحياة، وعجز المؤسسات الحضرية عن استيعاب السكان وإشباع حاجاتهم يستمرون في تمسكهم بالعلاقات الأولية، حيث أن أزمة السكن التي يصطدمون بها تفرض عليهم نمطا ووسطا ومعدلا من الأسر، والذي يتميز بالنووية في الميزانية والممتدة في الإقامة، أي أن الانتقال من الأسرة الممتدة المعروفة في المجتمع الريفي إلى الأسرة النووية المعروف بها الوسط الحضري، ومن التساند الآلي إلى التساند العضوي يتوقف على مدى فعالية المؤسسات الاجتماعية الحضرية في استيعاب السكان الحضريين وإشباع حاجاتهم المتعددة وخاصة في ميدان السكن وبصورة أدق عندما تعوض وبشكل فعال وظائف الأسرة الممتدة كوجود الحضنة مثلا .

بهذه الصورة يستقر الفراغ الاجتماعي بمرور الزمن، وينزع فقط للتراص واستغلال أدنى مساحة لإعطاء أمل جديد في زيادة فرد جديد، في وقت تغيب فيه كل ضوابط التعمير واستغلال المجال، فتهتز بذلك قواعد الضبط الاجتماعي عن طريق سيادة ثقافة الريف وبشكل صارخ في الوسط الحضري.

كما أنه من الصعب أن نتصور جماعة بمعزل عن الفراغ، فكل جماعة تحتل فراغا، ونسمي هذا الفراغ بالفراغ الاجتماعي، ففي الجماعة العمرانية تكون الرابطة الفراغية وثيقة وأساسية، وبالأساس تنشأ الجماعة العمرانية انطلاقا من الروابط الجماعية التي يخلقها قرب المسكن، رغم أن حي العالية الشمالية ينقسم إداريا إلى أحياء فرعية "حي النور، حي السعادة، حي الفجر"، إلا أن المواطنين عادة يفضلون استخدام أسماء الحارات بدلا عن الأحياء، وقد أطلقت على هذه الحارات تسميات من وحي الحياة اليومية للناس، وهذه الحارات هي :

- "الحارة القديمة" نواة الحي وأول تجمع عمراني ظهر على الرقعة الجغرافية .

- "حارة الحشاشنة" أو حارة الوصفان

- حارة "طابق الكلب" والتي عرفت لدى شباب الحي بـ"طاباقو" ثم تطورت التسمية إلى "طابقستان".

- حارة "لاسيطي" والتي تم فيها توطين ساكني البيوت القديرية وسط المدينة عام 1982.

- "حارة العشائش" وهي الحارة التي كانت عبارة عن خيم وأكواخ وبيوت من الصفيح ، وبعد تخطيط المجال تم إزالة جزء معتبر من الأكواخ.

- "حارة الشاوية" والتي يقطنها عادة الشاوية النازحون من المناطق الحدودية بين ولايتي باتنة وبسكرة.

وقد حدث تقسيم داخلي ضمن هذا التجمع ، إلى عناصر مختلفة به ، وهذا التقسيم ليس مظهرا من مظاهر الانحلال بل مظهر من مظاهر التنظيم الداخلي للجماعية ، وهو عماد البنيان والتماسك الداخلي لهذه الجماعية ، فهناك تمييز ضمن هذا الفراغ بين حارات متميزة وأمطاب بناء متميزة أيضا.

ثانيا. المسافات الاجتماعية

المسافة واحدة من القواعد غير المنطوقة، وهي بُعد هندسي بين الناس، يمكن وصفه بما يلتقطه الحدس من النقاط اللامتناهية التي تصطف بين شخصين أو أكثر لترسم كحيز في الفضاء، قوامه شعور الناس تجاه بعضهم البعض، وهي من الناحية النفسية عبارة عن "الدائرة" التي تنشأ بوقوف الشخص قريبا جدًا من شخص آخر حيث انفرد بتصنيفها إدوارد تي هول في كتابه "البعد الخفي" كما يلي:

المسافة الحميمة تبدأ عند التلامس إلى مسافة 46 سم تقريبا وهي مخصصة للعشاق والأطفال وأفراد العائلة المقربين والأصدقاء وكذلك الحيوانات الأليفة، ويمكن أن يدخل في هذه المسافة أيضا الأطباء أثناء فحص المريض، والحلاق،...

المسافة الشخصية تبدأ على بعد ذراع تقريبًا، أي 46 سم من الشخص وتنتهي على بعد 122 سم. وتستخدم هذه المسافة في أحاديث الأصدقاء والدرشة مع الأصحاب وفي الحوارات الجماعية.

المسافة الاجتماعية التي يتراوح بعدها بين 1.2 متر - 2.4 أمتار عن الشخص تكون للتعامل مع الغرباء والمعارف الجدد، وتبدو على نحو كثيف في الحياة اليومية في المدن الكبيرة خاصة ، حيث تتجسد بين البائع والزبون، أو بين الموظفين ومرتادي مكاتب الإدارة من عامة الناس، وهذا النوع من المسافة عادة يفرض طبيعة الحوار بين الطرفين، إذ في الغالب يُتَحاوَر في المواضيع العامة كحالة الطقس.

المسافة العامة لا تقل عن 2.4 أمتار عن الشخص الآخر، وتتمثل في إلقاء الخطب والمحاضرات والعرض المسرحي. فالمسافة العامة مخصصة في المقام الأول للجمهور العريض⁴، كما قد تكون مسافة للشخصيات العامة والمسؤولين والمدراء.

والواقع أن تنظيم هذه المسافات هو من الأهمية بمكان، إذ كثيرا ما أدى تقليصها إلى صدام بين الأفراد، باعتبارها تعدي عن الخصوصية، كما قد تفهم جفاء إذا ما تم تمديدها عن حدها المعهود، ذلك أن لا أحد ينكر أن رسم المسافة وتمثيلها بين الأفراد جزء من تفكيرنا، تفصح عنه حواسنا، وكثيرا ما تخدعنا عيوننا لتكسر المسافة وتجعلها تكبر أو تضيق لتعرب عما تكتنزه النفس من مشاعر وأحاسيس تشكلت في ضوء قيم ومعايير تحكم الطرفين على السواء.

ثالثا. أدوات رسم المسافات الاجتماعية في الجيوب القروية داخل المدن

إن العالم الذي نعيش فيه مصنوع في وعينا بأبعاد هندسية، بكل ما حوى من أفراد وأشياء، وعلى أساس هذا الوعي تكون ممارساتنا اليومية، كما أن إدراك وعينا للعالم المحيط بنا يجعلنا نرسم الحيز الشخصي لنا ونحافظ عليه، وندافع عنه في مقابل أي اختراق أو تعدي برغم تفاعلنا المستمر، بل وحاجتنا الماسة لهذا التفاعل، إذ نحن به نتشكل ونتمو ونتطور ونتغير و...وحسب جان بياجيه فإن كل تفاعل بين الذوات الفردية سيغير هؤلاء، الواحد

بالنسبة للآخر، فكل علاقة اجتماعية هي بالنتيجة علاقة كلية بذاتها، منتجة خصائص جديدة ومحولة الفرد في بنيتها الذهنية، من التفاعل بين فردين إلى التفاعل الكلي القائم من مجموع العلاقات بين الأفراد في المجتمع ذاته، هناك إذن استمرارية، الكلية في النهاية التي ينظر إليها على هذا الشكل تظهر وكأنها تقوم ليس من حاصل الأفراد، ولكن من نسق التفاعلات المتبادلة التي تغير هؤلاء الأفراد في بنيتهم نفسها⁵، الأمر الذي ينتج في النهاية نماذج اجتماعية مميزة، متفردة بخصائص، حيث ساق د. عبد الغني عماد في معرض حديثه عن التفاعل الرمزي بين الأفراد جملة من المقولات المنطقية نحسبها آليات لبناء نماذج اجتماعية متفردة، حيث قال:

تكتسب عقول الفاعلين قواعد اجتماعية تحصل عليها من المحيط الاجتماعي، حيث تم صياغة هذه العقول حتى تنسجم مع المحيط الذي تعيش فيه .

وعند تعايش الأفراد مع محيطهم الاجتماعي كفاعلين، فإنهم يتفاعلون مع الفاعلين الآخرين، ويبدأون باكتساب خبرات اجتماعية حول عالمهم المحيط .

كما لا يفرط الفاعلون في المكتسبات الاجتماعية، فهم يحرصون على تخزينها في ذاكراتهم لتكون باكورة معارفهم الاجتماعية .

يستخدم الفاعلون هذه المكتسبات المعرفية المخزونة في ذاكراتهم عند تعاملهم اليومي مع غيرهم من الفاعلين، أي يستخدمون الخبرات الماضية لمواجهة الفاعلين الآخرين في محيطهم، الأمر الذي يمنحهم رؤى جديدة حول علائق اجتماعية مستشرفة.

وإزاء هذا الأمر يتشكل عند الفاعل ما أسماه علماء الاجتماع بـ"المعرفة المخزونة"، لينتج عنها مفهوم آخر هو "التخلل الذاتي" الذي يأتي كنتيجة عن التقبل الذاتي بين مختلف الفاعلين، كل منهم للآخر، وهذا لا يحصل إلا عندما ينتج هؤلاء نوعا من "النمذجة"، التي تعني تشكيل صيغ متنوعة ومتعددة للأفعال الاجتماعية التي مرت عليهم في حياتهم الاجتماعية، وهكذا تتشكل خبرات ذاتية - اجتماعية، قد تتعزز إذا واجهت نفس ظروف

تشكلها، أو تلغى إذا واجه الفاعل ظروفًا معاكسة لها تبرهن على سوء تشكيلها أو انحراف رؤيتها أو نقص تركيبها⁶.

بالجيوب القروية، لتموضع العمران وتراصفه أثر كبير جدا على المسافات بين الأفراد، إذ أن المساكن الملتحمة مع بعضها تمنح القاطنين بها دفقا من الحميمة، فكما تتعاقب المساكن يتعاقب السكان، كما أن لشبكة الطرق والشوارع أثرها البالغ في تحديد المسافات بين الأفراد، وفي ما يلي آثرنا الحديث عن المسافات من خلال شكلين من أشكال التفاعل بين الأفراد فقط، إذ أن كل شكل ينطوي على جملة من الآداءات التي ترسم المسافات بين الأفراد.

الاتصال الكلامي

لا يمكن الاتصال لفظيا إلا بوجود عقد من الرموز المترافقة، التي تشكل قاعدة خلفية ينطلق منها كل توجه للآخر، وكذا إحدى الأدوات المستعملة لإيصال الأفكار عبر تبادل لغة منطوقة مفهومة من قبل شخصين أو أكثر، ولأن الجيوب القروية هي محط الاثنيات، فإن الكلام يتداول بسخاء، حيث كانت التحية في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي طاع عليها عبارة "صباح الخير" أو "واش اصبحت؟" أو "واش اصبحتي؟"، لكن عبارة "السلام عليكم" اكتسحت ما سبقها منذ امتداد الصحوة الإسلامية منذ أوائل التسعينيات من القرن الماضي، بيد أن الملفت للانتباه هو أن كبار السن لا يبادرون بالتحية معارفهم فحسب، بل كل من ساقته خطواته باتجاههم أو بالقرب منهم، وهم في كل الأحوال مهيؤون لفتح الحوار مع أي كان، بيد أن اللافت للانتباه أنه ورغم السخاء في الكلام، إلا أن الرجال لا يتجرؤون على الحديث مع النساء والعكس، إلا في حالات القرابة، والمسافة هنا قد تنتهي بالمصافحة وقد يحددها عرض الطريق الذي يلتقي فيه الأشخاص.

في الجيوب القروية الناس تتكلم بدون قيود، حتى مع الغرباء، وتفضض دونما داع لذلك مع أي كان، وتميل إلى التعارف حتى وإن كان الأمر يشكل إزعاجا للطرف الآخر، فحين تقصد محلا للبقالة توقع أن يسألك البائع عن اسمك ومسكنك وإن صادف وعرف

أنك من عائلة يعرفها سيسترسل في الحديث معك دون ملل، بل وقد يفتح معك أحاديث جانبية، فالمسافة هنا مرهونة بمدى الرغبة في مواصلة الحديث، والحديث عادة يتم حول غلاء المعيشة، والتغير الاجتماعي ومشكلات الشباب.

إن العلاقة الاجتماعية بين الجيران تحظى بنصيب وافر من الأهمية، إذ ورغم التباين الاثني، إلا أن المجال غير المخطط المتراص من شأنه توطيد العلاقات بين السكان وتحويلها إلى صلات رحم ومصاهرة، ويتم ذلك عادة من قبل النسوة اللواتي يسترقن من ضيق الشارع فرصة لتجاذب أطراف الحديث وصنع الألفة أو الفتنة، وتحسين الجوار - في أغلب الأحيان - وإثراء مختلف العمليات الاجتماعية، بينما يظهر التراص الاجتماعي في حارة الشاوية وحارة الحشاشنة خاصة حيث يسود التجانس الاثني وفي التكتلات المشوهة حيث كان المجال أصلا لعائلة واحدة ثم انقسمت وورث العقار للأحفاد كما هو الشأن في درب العثامين والسوامع وأولاد دراج في حارقي طابق الكلب والنواة القديمة .

بعض الأسر تكتفي في فصل الصيف بإسدال الكلّة بدلا عن غلق الباب، ليتناهى الكلام المتداول داخل المسكن إلى مسامع المارة دوّما حرج من أصحاب البيت، مما يعرض خصوصيات الأسرة للانتهاك، هذا السلوك اعتادت عليه بعض الأسر، خاصة تلك التي تقع في الطرق الضيقة والحادة، وهو لا يعتبر انتهاكا للخصوصية في ثقافة الحي - وربما انسحب الأمر على أحياء بسكرة القديمة، وكبلوتي وسطر ملوك والعطيلة- وبعض هذه التجمعات العمرانية هي جيوب قروية احتوتها مدينة بسكرة بمرور الزمن.

كما أن حياة أخرى تتم فوق سطوح المنازل، إذ المساكن البسيطة ذات الجدران المنخفضة تمنح النسوة في غياب الرجال فرصة الحديث وتبادل الطعام واستعراض المشتريات من الألبسة وأدوات الزينة وأثاث المنزل، والتحدث مطولا حول وصفات الطبخ والزينة وكذا التدبير المنزلي، ومواضيع أخرى من قبيل الإنجاب وفك السحر و... ومعظمها مواضيع شخصية وحساسة، الأمر الذي يؤول عند الخلاف حول مختلف الأسباب إلى معايرة بعضهن البعض بمثل العورات المنتهكة من خلف جدران السطوح، فالمسافات هنا وإن بدت كبيرة فمادتها الأساسية قضايا شخصية.

وللسطوح نصيب في رسم المسافة بين الأفراد، فعندما يصعد أحد الجيران "الذكر البالغ" إلى سطح منزله، فإنه يستأذن الجيران، حيث ينادي "الطريق الطريق..."، ففي هذا الأمر حفاظ على حرمة الجار من أن تقع عينه على من بفناء المسكن من نساء... ولهذا السلوك قداسة لدى السكان، واختراقه أو إهماله يُعدّ تعديّ صارخ على حرمة الجيران.

من جهة أخرى فإن تركز المساجد والمقاهي داخل النسيج العمراني من شأنه تقليص المسافات بين الناس، إذ أن المساكن الضيقة تلفظ الرجال عادة خارجها باتجاه المقاهي أو على نواصي الشوارع، حيث يقضون ما تبقى من نهارهم في الدومينو أو الضامة مع احتساء كؤوس الشاي وفناجين القهوة.

ويبدو أن اختراق مجالات الصوت في الشارع العام لدى السكان أمر عادي من قبل بعضهم البعض، ففي موسم الأعراس يقيم الرجال حفلاتهم في الشارع، حيث يصدح البراج وعبر مكبر الصوت بصوته إلى غاية منتصف الليل دونما تدمير أو مساءلة من أحد، ويجسد هذا الأمر أولاد دراج والسحاري والسوامع، بينما يسهر الشاوية على صوت البارود، وأهازيج الرحابة.... بهذا السلوك يكون الناس قد اخترقوا المجالات الشخصية، وأفسدوا وقت الراحة للسكان.... هذا السلوك الريفي انسحب على المدينة ليمارس في كل شوارعها وأحيائها، وهو إحدى مظاهر تزييف المدن، نفس التعدي على مجالات الآخرين يظهر في سلوك أصحاب المحلات الذين يعرضون بضائعهم على الرصيف، دافعين المارة إلى استخدام قارعة الطريق.

الاتصال غير الكلامي

قد يختلف الناس من مجتمع لآخر في أساليب التعبير عما تكنه النفس من مشاعر، لكن ثمة قواسم مشتركة تكاد تكون فطرية، يفهمها جميع البشر، كمشاعر السعادة والحزن والغضب والاشمئزاز والخوف والدهشة، وهذه النزعة الغريزية الفطرية هي من بين المسائل التي تصنع المسافة بين الأفراد، فدموع الحزن ودموع الفرح ودموع الاستعطاف ودموع الخوف عادة تكون مصحوبة بتقاسيم الوجه مما يرسم المسافة وفقا لتلك التقاسيم، وإن كان

التعبير بتقاسيم الوجه فطريا وغريزيا، فإن بعض أساليب التعبير بالحركات تحددها الثقافات والجماعات وبصور مختلفة⁷.

بمعنى أن تقاسيم الوجه كثيرا ما تنوب عن الكلام بتقطيب الحواجب والاشتمزاز وإشاحة الوجه و... مدعاة لرسم مسافة أطول، فيما تدعو الابتسامة إلى تقليصها، وقد تدعو دموع الاستعطاف إلى اختراق المسافات الشخصية وحتى الحميمة.

من جهة أخرى فإن تزيين الوجه بشكل ملفت قد يقلص المسافة بين النساء والرجال، الأمر الذي يدفع بكثير من النسوة إلى حجب الوجه بالنقاب "العجار"، وهو أمر منتشر بكثرة في الجيوب القروية بحي العالية الشمالية، قد يتم بإيعاز من الرجل سواء كان زوجا أو أبا أو أخا، أحيانا باسم التدين، وأحيانا أخرى باسم تقاليد المجتمع ومعاييره، فيما يتخذ لبس العجار أشكالا أخرى، إذ تلبسه النسوة داخل الجيب القروي وتزرعه خارجه، أو تلبسه حين ارتياد الأسواق المفتوحة كسوق الاثنين وسوق الخميس.

وللوجه في الجيوب القروية أهمية تتجلى في المقولات الشعبية مثل "وجه الحياء يا قير"، وتقال لمن يتصنع الحشمة فيما يأتي بخلافها، و"احشم على وجهك" وتقال لمن يريد الآخرون أن يستحي، و"حمر وجوهنا" أي زدنا مفخرة بعمل محمود.

في الجيوب القروية تبدو الحياة اليومية أقرب للروتين منه للتجديد، بيد أن المتأمل يلحظ تجديدا في كل يوم وفي كل موقف، فالناس هنا وبناء على تفاعلهم مع المكان يعيدون تشكيل واقعهم رغم أن إدراكهم له مختلف ومتفاوت، بناء على طبيعة المهادات والخلفيات التي نشأوا فيها والبواعث والحوافز التي يستهدون بها والمصالح التي يسعون إلى تحقيقها، ولأن لدى الأفراد القدرة على الفعل الابتكاري الخلاق، فإنهم يعيدون تشكيل واقعهم على الدوام عبر ما يتخذونه من قرارات وما يقومون به من تصرفات، فالواقع حسب أثنوني جيدنز ليس ثابتا وساكننا وناجزا، بل إنه يُخلق ويتشكل ويعاد تشكيله، يظهر ذلك جليا في سلوكات الناس، فالذين شكلوا الواقع في الجيب القروي في سبعينيات القرن الماضي، ليسوا هم مشكليه في سنوات القرن الحالي، وتشهد على ذلك السمات الثقافية البائدة والسمات التي تظهر كل يوم، مثال ذلك إذا طرقت زائر بيتا من عرش "أولاد رحمة"، فإن

المرأة ترد بالتصفيق دون الكلام، لآلا يضطر الطارق الغريب إلى الاستفسار عن وجود الرجال من عدمه، وفيما تختفي ظاهرة التصفيق تظل الأسر القديمة محافظة على السلوك الاحتشامي، فالمرأة لا تفتح الباب للطارق بوجود صاحب البيت أو الذكور بشكل عام داخل المسكن، تفاديا للحديث مع رجل غريب.

إن عبور امرأة بالغة السفور الشارع في الجيوب القروية يدعو إلى لفت الانتباه أو التحرش من قبل الشباب -عادة لا يتحرش الشباب بالقرب من منازلهم أو منازل أقربائهم-، وعبور امرأة ورجل في مشية مشبوهة أمر يدعو إلى تدخل السكان بالكلام والنهي عن السلوك، ووجود الشرطة يدعو السكان للالتفاف والسؤال عن سبب الحضور، حتى وإن كان الأمر لا يعني أحدا، كما أن وجود العراك يدعو السكان لاختراق كل المسافات لفضه... فالمشهد يبدي السكان وكأنهم لا شغل لهم إلا كسر المسافات.

بعبارة أخرى، لا يتجاهل الناس في الجيوب القروية من مر بمنزلهم، بل يعبرونه كل اهتمامهم، ويحدقون فيه مليا، فهم يصفون لباسه وطريقة مشيته وكل حركاته، وهم وإن لم يقتحموا حياة الآخرين بالتفاعل المباشر اقتحموها بالتحية، وإن تعذر ذلك اقتحمتها نظراتهم الرامقة، وهم بشكل عفوي أو مقصود يأتون بهذا السلوك ولا يعيرون على أنفسهم الاشتغال بخصائص الآخرين، فذلك جزء من حياتهم الروتينية، ومن تفكيرهم، فميزة "الإغفال المهدب" التي يتخذها سكان المدن المزدهمة كآلية من آليات التكيف مع الازدحام والصخب والاتصالات اللاشخصية والعبارة تبدو مستحيلة في الجيوب القروية، حتى وإن عجز المكان بالناس.

الخاتمة

المسافة وإن كانت بعدا هندسيا، فهي أيضا رمز ينطوي على كثير من المدلولات، ووظيفة الرمز كما أشار ميشيل فوكو بقوله "إن المسافة كبيرة بين ما تظهره الرموز وما تحجبه وما توهم إلى وما تستره، إلا أن ذلك التباعد ذاته هو ما يجعل عملية التأويل ممكنة، وتلك المسافة، وما تتطلبه من عنق وحمد وشك وتساؤل، هي التي ترفع القراءة إلى مرتبة

تجعلها فنا من الفنون"⁸، وفي هذا المقام خلصنا إلى أن المسافة التي أبدع في رسمها إدوارد تي هول لا تنطبق على الجيوب القروية في المدن الجزائرية، فالسلوكات اليومية في المجتمع الجزائري تستند إلى إطار مرجعي مميز، وسلم من القيم والمعايير الشعبية التي آلت إليها المجتمع عبر الزمن وأصبحت جزء لا يتجزأ منه، هذا فضلا عن الخصائص الريفية التي تنسلخ بالتدرج تواقفة لحياة حضرية جديدة، ففي وجود جوار متراص العمران وشبكة طرق ضيقة، وإثنيات متميزة ترتسم المسافات عفوية بشتى الأشكال والطرق.

الهوامش:

¹ جبل غاستون غرانجي (2009). فكر الفضاء. ترجمة: علي دعبس. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت لبنان. ص12

² نفس المرجع السابق. ص14.

³ ميمونة مناصرية . التحول الديمغرافي وآثاره على التشوه العمراني -دراسة تطبيقية بجمهورية الشالية-. إشراف: أد. بلقاسم سلاطينية . قسم علم الاجتماع والديمغرافيا . جامعة منتوري قسنطينة الجزائر . السنة الجامعية 2004/2003 .

⁴ https://ar.wikipedia.org/wiki/مساحة_شخصية في 2017/003/12

⁵ جي روشيه ص26 .

⁶ عبد الغني عماد.(2007). منهجية البحث في علم الاجتماع . الإشكاليات ، التقنيات ، المقاربات . دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت . لبنان. ص117 .

⁷ أنتوني جينز.(2005). علم الاجتماع. ترجمة: فايز الصياغ. مركز دراسات الوحدة العربية. ص ص 175- 180 بتصرف.

• مصطلح "الإغفال المهدب" جاء واردا في المرجع السابق.

⁸ علي أسعد وطفة. من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي قراءة في الوظيفة البيداغوجية للعنف الرمزي في التربية المدرسية. مجلة شؤون اجتماعية. العدد 104 شتاء 2009. ص56.

